العربية أصواتها وحروفها ومفرداتها

بحث من قبل

د.موسى الحركاني

الأصوات والحروف :

يبلغ عدد حروف الهجاء في العربية تسع وعشرون حرفاً عند سيبويه (١٨٠هـ) (١) ، وثمانية وعشرون حرفاً عند المبرد (٢٨٥ هـ) (٢) ، لأختلافها في عدّ الهمزة حرفاً مستقلاً وهي مع ذلك لم تكن أوفر عدداً من أبجديات اللغات الأخرى مطلقاً ، فلغة الأرمن يبلغ عدد حروفها ستة وثلاثين حرفاً إلا أنكَ إذا تأملتها وجدت بعض الحروف التي فيها يتشابه بعضها ببعض كثيراً على حد تشابه الضاد والظاء في لغة العرب (٣) ، واللغة الروسية يبلغ عدد حروفها خمسة وثلاثين حرفاً (٤) ، ولكنها مع هذه الزيادة لا تبلغ مبلغ العربية في الوفاء بالمخارج الصوتية على تقسيماتها الموسيقية لأن كثيراً من هذه الحروف الزائدة ليست إلا حركات مختلفة لحرف واحد .

فميزت العربية إنما هي في سعة المدرج الصوتي من الشفتين إلى أقصى الحلق مع تنوع المخارج وتعدّدها حيث تبلغ ستة عشر مخرجاً (٥) ، من الجوف والحلق إلى اللسان وما يجاوره إلى الشفتين إلى الخيشوم .

وبذلك تكون العربية أوفر عدداً في أصوات المخارج التي لا تلتبس ولا تتكرر بمجرد الضغط عليها ، فليس هناك مخرج واحد ناقص في العربية ، وإنما تعتمد هذه اللغة على تقسيم الحروف بحسب موقفها من أجهزة النطق ، ولا تحتاج إلى تقسيمها بأختلاف الضغط على المخرج الواحد كما يحدث في اللغات الأخرى (٦) ، ولذلك أمتازت العربية بجميع حروف الحلق وحروف الأطباق ، بينما توجد تلك بدرجات متفاوتة في اللغات السامية الأخرى ، والمقصود بوجود هذه

الحروف في العربية أو غيرها : كونها تشكل وحدة صوتية متميزة فلا ينافي أنها قد توجد عرضاً في اللغات الأخرى سامية ً أو غيرها (٧) .

وأكثر الحروف إختصاصاً بالعربية الضاد والظاء حيث تعرضتا للتغيير في اللغات السامية الأخرى ففي الأكادية والعبرية تستبدل الضاد والطاء والصاد بصاد أخرى تختلف عن العربية قليلاً ، فصوت الصاد في هاتين اللغتين حل محل ثلاثة أصوات عربية ، أما في الآرامية فقد تحولت الضاد إلى عين أو قاف وذلك تحولٌ غريب يصعب تفسيره (٨) .

وبذلك يبقى إطلاق **(لغة الضاد)** على العربية صحيحاً إلى حدٍ بعيد ، ووجود هذا الصوت في العربية الجنوبية والحبشية لا يقدح في ذلك ، لأن الحبشية أمتداد حديث للعربية الجنوبية ، والعربية الشمالية والجنوبية لغةٌ واحدة في نظر كثير من العلماء ، ولذلك يقول – رينان – في كتابه **(اللغات السامية)** : **((إنه ليس للهجة حمير ولسان الحبشة مكان أساسي في اللغات السامية وإنما هما بمثابة أداتين هيأتا مجال الظهور للعربية المحضة الحجازية))** (٩) .

والحديث عن لغة الضاد إنما هو بالنظر إلى الواقع اللغوي وكون العربية مختصة بهذا الحرف فعلاً دون غيرها من بقية اللغات السامية وغير السامية ، وذلك بغض النظر عما قيل من أن هذا المصطلح **(لغة الضاد)** إنما ظهر في القرن الرابع الهجري بوصفة صورة ً من صور الصراع بين القومية العربية وغيرها من القوميات (١٠) ، فضلاً عما صرح به العلماء من أن حديث **((أنا أفصح من نطق بالضاد))** لا أصل له ولا يصح ، كما قال أبن الجزري (٨٣٣ هـ) (١١) ، أو لم يثبت ، أو لا أصل له وإن كان معناه صحيحاً كما صرح به الشهاب الخفاجي وملـه علي القاري (١٢) .

كل ذلك لا يمنع من أن تكون العربية بقسميها وربيبتها الحبشية قد أختصت بحرف الضاد كما صرح به العلماء قديماً وحديثاً .

وقد أدرك القدماء تميز العربية بتمام حروفها ، وسعة مدرجها الصوتي وتنوع مخارجها .

فأبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (٣٣٢ هـ) يقول : ((**لغة العرب هي اللغة التامة الحروف ، الكاملة الألفاظ لم ينقصها شيء من الحروف فيشينها النقصان ، ولم يزد فيها شيءٌ فتعيبها الزيادة ، وسائر اللغات فيها حروفٌ مولدة ، وينقص عنها حروفٌ هي أصلية ، ونعّدُ باللغة الفارسية التي طبعنا عليها ونشأنا فيها**)) (١٣) .

أما أبن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) فيقول : ((**مما أختصت به العربية من الحروف وليس هو في غيرها حرف الضاد والظاء ، وقد ذهب قومٌ إلى أن الحاء من جملة ما تفردت به لغة العرب ، وليس الأمر كذلك ، لأني وجدتها في اللغة السريانية كثيراً وحكي أنها في الحبشية والعبرانية**)) (١٤) .

وبناءاً على هذا التمام في الحروف ووضوح مخارجها ، وملاءمتها للأصوات اللغوية ، أستغنت العربية عن تمثيل الحرف الواحد بحرفين مشتبكين أو متلاصقين كما يكتبون الثاء والذال والشين وغيرها في بعض اللغات كالانكليزية (مثلاً) التي تعبر بحرفي : TH عن الثاء تارة وعن الذال أخرى ، وتعبر عن الشين بحرفي : SH ، ((**وإن أية لغة لم تحرر في المخارج بحروفها كما تحررت في لغة الضاد ، وليس في لغة الضاد حرفُ ملتبس بين مخرجين ولا مخرجٌ ملتبس بين حرفين**)) ، فضلاً عن ذلك ثبات أصوات الحروف فيها على مر العصور توفيراً للجهد ، ودلالة على الأتصال بين أنسال الأمة العربية (١٦) ، فأصوات العربية الفصحى كما ننطقها الآن هي كما كانت منذ خمسة عشر قرناً أو تزيد مما جعلنا

قادرين على فهم النصوص النثرية والشعرية التي قيلت في الجاهلية وصدر الإسلام وما بعد ذلك بيسر وسهولة ، **((ومع أن النظام الصوتي لا يستطيع أن يكون ثابتاً خلال مراحل التطور للغات فأن معجزة العربية تتجلى في ثبات أصواتها التي تومئ إلى مدلولاتها))** (١٧) .

أما اللغات الأخرى فأن أصواتها تتبدل وتتغير من حين لأخر ، ولذلك فأن صلتهم بتراثهم قريبة العهد كما في اللغات الأوربية المتفرعة عن اللاتينية فأن عمرها بالنسبة لغيرها من اللغات قصير ، وتراثها أقصر عمراً بحيث لا يستطيع الأوربي الآن فهم ما كتب قبل خمسة قرون أو ستة على الأكثر ، وذلك بسبب تغير أصواتها وتطور مفرداتها نطقاً ودلالة .

ولعل أوضح مثل لذلك أن تلاحظ الفرق بين طبعتين من طبعات المعجم الإنكليزي العالمي **(وبستر- Webster)** فبينما يبلغ عدد كلمات المعجم في طبعته الثانية سنة ١٩٣٤ حوالي ستمائة ألف كلمة ، ينقص عدد كلمات هذا المعجم في طبعته الثالثة سنة ١٩٦١ إلى حوالي أربعمائه وخمسين ألف كلمة ، وبما أن هذا المعجم في طبعته الثالثة أضاف مائة ألف كلمة وأسقط مائتين وخمسين كلمة يتضحُ أن نصف كلمات اللغة الإنكليزية أختفت بين عامي ١٩٣٤ – ١٩٦١ (١٨) ، ولذلك قال العلماء الغربيون : **((أن تبدل أصوات الحروف حتمي في جميع اللغات))** (١٩) ، وهذا التعميم ينقض لغتنا العربية ولا ينطبق عليها لسببين : أولهما ميل العرب بفطرتهم إلى المحافظة على مالا موجب لتغيره في حياتهم ، والأخر نزول القرآن بهذه اللغة ووجوب تلاوته كما أنزل دون تغيير أو تبديل في الحروف أو في الحركات (٢٠) ، وبهذا يجدر بنا أن نلاحظ أن المراد بثبات أصوات الحروف في العربية أنه لم يحدث بها تطور يغير المعنى أو يقطع الصلة بين الماضي والحاضر ، فضلاً عن وضوح المناسبة بين صفات بعض الحروف من

جهرٍ وهمس وشدة ورخاوة ولين ، وأستعلاء وأستفال ، وبين المعاني التي تدل عليها الكلمات ، حيث تجد للحرف قيمة تعبيرية تتناسب مع صفته وموقعه من الكلمة ، ويتضح ذلك في كثيرٍ من الألفاظ التي درسوها ونبهوا إليها وفي مقدمتهم أبن جني (٣٩٢ هـ) حيث ذكر كثيراً من هذه الأمثلة مؤكداً (٢٢) ، أن مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث بابٌ واسع ، ونهجٌ مأموم ، من ذلك : خضم وقضم فالخضم بالخاء المتصف بالرخاوة يستعمل لأكل الأشياء الرطبة ، وبعكسه القضم لكون القاف من حروف الشدة (٢٢) ، وكذلك : صعيد وسعيد ، والصّدّ والسّدّ ، فالصاد في الكلمتين من حروف الاستعلاء فاستعملت في الصعود الحسي والإغلاق المحكم ، والسين في الكلمتين الأخريين من حروف الأستفال فاستعلمت على العادة المعنوية والإغلاق الهين في الكلمتين على الترتيب ، وكذلك القصم والقسم ففرق الصفة بين السين والصاد أنجز عن فرقٍ في المعنى (٢٣) .

وقد سرى على كثيرٍ من الألسنة والأقلام وصف العربية بأنها لغة الضاد نظراً لأختصاصها به سائر اللغات كما تقدم فما الإيحاء الذي يشير إليه هذا الحرف ، يرى بعض الأدباء أن الضاد يقترن كثيراً بالشؤم والمكروه مثل ضجر ، ضر ، ضير ، ضجيج ، ضوضاء ، ضياع ، ضلال ، ضنك ، ضيق ، ضنى ، ضوى ، ضراوة ، ضيزى ، وبعكسه الحاء التي تكاد أشرف المعاني وأقواها مثل : حب ، حق ، حرية ، حياة ، حسن ، حركة ، حكمة ، حلم ، حزم ، ويرى أنه لهذه المزية ، ولعسر النطق بها على حناجر الأعاجم دون سائر الحروف كان الأولى أن تنسب لغتنا إلى الحاء ، فنقول : لغة الحاء بدلاً من لغة الضاد (٢٤) ، ولكن الحاء كما تقدم ليست خاصة بلغتنا بل توجد في كثير من اللغات السامية ، وعلى ذلك يكون إيحاؤها مشتركاً ، وتضيع الميزة التي أردنا إثباتها .

((والخلاصة أن هناك إرتباطاً بين بعض الحروف ودلالة الكلمات ، وأن الحروف لا تتساوى في هذه الدلالة ، ولكنها تختلف بأختلاف قوتها وبروزها في المقاطع الصوتية ، وإن العبرة بموقع الحرف في الكلمة لا بمجرد دخوله في تركيبها ، وإن الأستثناء قد يأتي من إختلاف القّدِ والتقدير ، ولا يلزم أن يكون شذوذاً في طبيعة الدلالة الحرفية ، ولا نعرف بين اللغات الكبرى لغة أصلح من لغتنا العربية لهذا الباب من أبواب الدراسة اللغوية ؛ لأن مخارج حروفها مستوفاة متميزة خلافاً لأكثر اللغات التي تعوزها الحروف الحلقية أو تلتبس فيها مخارج الحروف الهجائية)) (٢٥) ، ومع ذلك فلابُدّ أن نلاحظ أن هذه الدلالة وأن ظهرت في كثير من الألفاظ إلا أنه يمكن ادعاء اطرادها في كل الكلمات لأن ذلك أمر يصعب تحقيقه فضلاً عن كون تركيب الكلمات من الحروف لها ذوقاً رفيعاً ، وموسيقى عذبه تعتمد على التناسب والخضع والأعتدال ، تبتعد عن الغرابة والتنافر ؛ ولهذا كانت الأصول الثلاثية أكثر أستعمالاً فيها لكونها من يبتدأ به ، وحرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه ، وذلك يتناسب مع طبيعة النطق حيث تفصل العين بين ما حقه من الحركة وهو فاء الكلمة وما حقه السكون وهو الحرف الأخير فلا يحدث إنتقال مفاجئ من حركة إلى سكون (٢٦) ، ومما يدل على ميل العرب إلى الخفة أنهم يستثقلون تكوين الكلمة من حروف متقاربة في المخرج غالباً ، يقول أبن جني : ((فمن ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه نحو : سص ، وطس ، ظث ، وكذلك نحو : قج وحق ... وكذلك حروف الحلق هي من الأئتلاف أبعد لتقارب مخارجها ، فأن جمع بين أثنين فيها قدم الأقوى على الأضعف نحو : أهل وأحد (٢٧) ، وهكذا فأحسن الأبنية ما كان مكوناً من حروف متباعدة في المخرج.

ولذلك أستطاع العلماء أستنباط علامات تكشف بها الكلمات الدخيلة على العربية من خلالة تركيب حروفها ، فلا تجتمع الصاد والجيم ، ولا الجيم والقاف ،

ولا الطاء والجيم ، في كلمة عربية ، وكذلك لا تقع زاي بعد دال ، ولا شين بعد لام ، ولا نون قبل راء ، في كلمة عربية (٢٨) ، فللحروف العربية أصواتها سعة في المدرج الصوتي ، وحسن توزيع للحروف على هذا المدرج ، وثبات لأصوات هذه الحروف على مرّ الأنسال والعصور ، وإيحاء وإيماء للحروف نحو معانيها نشأ عن طول آلفة بين هذه اللغة والمتكلمين بها ثم مراعاة للخفة وسهولة النطق في تركيب الكلمات من الحروف .

المفردات:

إشتقاقها :

الأشتقاق المقصود به ((أخذ كلمة من أخرى من أتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيأة تركيب لها ليدل ّ على معنى الأصل بزيادة مفيدة)) (٢٩) ، وهذا هو الأشتقاق العام أو الأشتقاق الأصغر ، وهو المقصود عند الأطلاف لأنه أهم أنواع الأشتقاق بخلاف الأنواع الأخرى من الكبير والأكبر ، فأهميتها أقل بكثير .

والأشتقاق بمعناه العام وسيلة من وسائل تنمية اللغة وتمكينها من الأيفاء بمتطلبات الحياة ، حيث يمكن في كثير من المواد مثل (ع. ل .م) و (ق. ط. ع) أشتقاق عشر صيغ ، ثلاثة للفعل ، وسبعة للأسم : أسم الفاعل ، وأسم المقعول ، والصفة المشبهة ، وأسم التفضيل وأسم الزمان وأسم المكان وأسم الآلة بجميع تصاريفها ومصادرها ومصغرات أسمائها بحث تصل عند بعضهم إلى مائة وخمسين كلمة (٣٠) .

وهكذا تتضح غلبة الأشتقاق على مفردات اللغة العربية حيث أن العرب لم تقتصر على الأشتقاق من المصادر ، بل أشتقت من أسماء المعاني ومن الذوات الحسية ومن أسماء الأزمنة والأمكنة ومن أسماء الأصوات ومن الحروف في أمثلة كثيرة (٣١) .

وبذلك أصبحت مفردات هذه اللغة تعيش في مجموعات كبيرة يرتبط بعضها ببعض إرتباطاً مادياً ومعنوياً عن طريق الأتفاق في الحروف الأصلية وفي المعنى العام الذي يدل عليه أَصل المادة ، فالرابطة الأشتقاقية عندئذٍ تبدو واضحة بين الكلمات المشتقة في هذا العصر وبين أصولها مع طول الزمن ، كما تبدو كذلك واضحة بين مصطلحات العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وبين معانيها اللغوية .

إن ميزة الأشتقاق في العربية قد أكسبتها ثروة في الألفاظ تتنامى على مرّ العصور ، ومرونة تستجيب بها لمقتضيات الحياة وما يجد فيها من معانٍ وأفكارٍ وأدوات ومخترعات .

وطريقة العربية في هذا التنوع تقوم على أتخاذ قوالب للمعاني نصب فيها الألفاظ ، وهياكل تبنى على هيأتها مواد الكلمات ، فأسم الفاعل من الثلاثي له صيغة واحدة ومن غير الثلاثي يكون بزنة مضارعة مع إبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة وكسر ما قبل أخره ، وكذلك أسم المفعول من الثلاثي بزنة مفعول ومن غير الثلاثي بزنة مضارعة مع إبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة وفتح ما قبل أخره وكذلك بقية المعاني من مكان وزمان وآله وتفضيل ومبالغة ، حتى وصل المشتقات المحضة – فيما يقال – إلى سبعين الفاً من الكلمات (٣٢) .

و((إنّ الوزن هو قوام التفرقة بين أقسام الكلام في العربية ، وإن اللغات السامية التي تشارك هذه اللغة في قواعد الأشتقاق لم تبلغ مبلغها في ضبط المشتقات بالموازين التي تسري على جميع أجزائها ، وتوفق أحسن توفيق بين مبانيها ومعانيها)) (٣٣) .

وهكذا يمكن تصنيف الكلمات العربية بحسب مواردها وأصولها كما فعل أصحاب معجمات الألفاظ العربية ، كما يمكن تصنيفها بحسب صيغها وموازينها ،

فلأسم الفاعل صيغة ، وللمفعولية صيغة ، وللآلية والتفضيل والمبالغة صيغ خاصة كذلك (٣٤) ، وكيفما جُمعت الفاظ العربية أتضحت رابطتها الأشتقاقية أو وظيفتها الصرفية على نحو مُطرد وقواعد راسخة ، وأوزان وصيغ كشف عن معانيها ممّا يعد للعربية ميزة لا تتوفر لغيرها من اللغات .

فلو نظرنا إلى اللغات الأوربية كالإنكليزية مثلاً لوجدنا الفردية غالبة على مفرداتها ، فقد تتقارب في معانيها وتختلف في ألفاظها فنحو : كتاب ومكتبة وكتب وكاتب يقابلها في الأنكليزية : Writer , bureau , Library , book على الترتيب ، وهي كما ترى متباعدة في اللفظ متقاربة في المعنى ، وكذلك الكلمات الدالة على العلاقات الاجتماعية كالأخ والأخت Sister , Brother والأبن والبنت Son , Daughter والزوج والزوجة Wife , husband فكل هذه الألفاظ متقاربة في المعنى مختلفة في النط والصيغة ، وقد تتفق الألفاظ عندهم في النطق وتختلف في المعنى مع الأختلاف في الرّسم مثل : Peace بمعنى سلام و Piece بمعنى قطعة ، و heel بمعنى كعب heal بمعنى يبرئ ، و one بمعنى واحد و won بمعنى فاز أو كسب ، وweek بمعنى أسبوع و weak بمعنى ضعيف .

فالكلمات في هذه اللغات تجري على وزن واحد بغير دلالة على اتفاق في المعنى ولا في تقسيم الأسماء والأفعال والحروف ، ولولا هذه المشابهة العريضة بين بعض كلماتها لكان فيها من الأوزان عداد ما فيها من الكلمات .

إن كلمات مثل (an: أداة تنكير ، وpan عموم ، و tan يدبغ ، thane سيد و ran جرى و fan مروحة و man رجل) ، وتوجد في الأنكليزية أتفاقاً ومنها أسماء وأفعال وحروف ، ولا علاقة بين معانيها أو وظيفتها الصرفية (٣٥) ، ومع أن العربية قد اعتمدت الموازين والقوالب المتماثلة لكثير من المعاني فأن ذلك لم يؤثر في وفرة مفرداتها فهي غنية بهذه الموازين على نحو لا يتوفر في غيرها من اللغات

، وقد حاول بعض العلماء إحصاء هذه الموازين ((وما منهم من أستوعبها وأول من حاول إحصاء أوزان الأسماء : سيبويه حيث ذكر منها ثلاثمائة وثمانية أمثلة ، وزاد أبن السراج أثنين وعشرين مثالاً ، وزاد أو عُمر الجرمي ابن خالويه أمثلة يسيرة ، وما منهم إلا ترك أضعاف ما ذكر ، وبلغ ابن القطاع إلى عشرة ومائتين والف مثال)) [٣٦] .

إنّ ميزة الأشتقاق – ولاسيما بمعناه العام وهو المطردة قواعده غالباً – قد عادت على العربية بفوائد كثيرة ، حيث وثقت الصلة بين المفردات العربية قديمها وحديثها ، ومكنت الدارسين من إدراجها في مجموعات متشابهة تُسهّل على المتعلم إدراك مفردات آية مادة بعد إطلاعه على بعض مشتقاتها ، كذلك كان لهذه الميزة فضل في إكتشاف الدخيل من الكلمات ، فإذا لم يمكن إرجاع الكلمة إلى أصل معروف أو مادة معلومة دل ذلك على غرابتها وعدم أصالتها .

وفرتها :

تتميز العربية بوفرة مفرداتها وكثرتها ((في تشمل على جميع الأصول التي أشتملت عليها أخواتها السامية أو على معظمها وتزيد عليها بأصول كثيرة احتفظت بها من الأصل السامي الأول ولا يوجد لها نظير في آية أخت من أخواتها)) [٣٧] .

يدل على ذلك إحصاء قام به الأب مرمرجي الدومنكي لمعجميات سامية فكان على وجه التقريب : يبلغ مجموع أصول العربية ٧٢٢٠ ، ومزيداتها : ١٢٠٣٢ في حين أن أصول اللغة السريانية العبرية والحبشية والأكادية مجتمعة تبلغ ٤٩٥١ ومزيداتها : ٨٦١٠ ؛ ولذا يسوغ القول إن العربية أغنى اللغات السامية ، ولعلها أوفر ثروة من لغات العالم قاطبة [٣٨] .

إن التاريخ الطويل لهذه اللغة وتنوّع الأستعمال لمفرداتها بتنوّع العصور البيئات والحضارات وإختلاف الشعوب والظروف ، كل ذلك أدى إلى إزدياد ثروتها

في المفردات والأساليب ، أضف إلى ذلك احتفاظ معجماتنا ، اللغوية بجميع الفاظ اللغة المستعملة أو مهجورة بخلاف معجمات اللغات الأخرى (٣٩) ، ونظراً لكثرة الفاظ العربية ومفرداتها لم يستطع أحد من العلماء أستقصاءها وتتبُّعها بدقة ، وقد كان للخليل بن أحمد فضل السبق في محاولة استقصاءها بطريقة رياضية عن طريق جمع الحروف الهجائية في دوائر أو مثلثات وتقليبها على وجوهها المختلفة ، فحصل له من ذلك أكثر من أثني عشر مليوناً من الأبنية بين مستعمل ومهجور ومهمل ولا معنى له (٤٠) .

والغريب أن الزبيدي (١٢٠٥ هـ) في مختصر كتاب العين ينزل بهذا العدد إلى النصف تقريباً ولعله يريد ماله معنى من الأبنية العربية ، ثم يذكر الزبيدي أن المستعمل من هذا العدد الكبير إنما هو خمسة الآف وستمائة وعشرون (٤١) .

وهو مستبعد إلا أن يريد بالاستعمال كثرة التداول وقُرب المعني مما يستوي في فهمه العامة والخاصة ، أما لغة العلم والأدب فلاشكَّ إن مفرداتها أكثر من ذلك بكثير ، وهذه معجماتنا اللغوية المتداولة تحتوي عشرات الآلاف من المواد كصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط ، ومعظم موادها ومفرداتها مما لا يستغني عنه في لغة العلم والأدب .

فثراء العربية في مفرداتها تبدو واضحةً حينما نوازن بغيرها ، ففي الوقت الذي تعد فيه مفردات العربية بالملايين ، نجد ألفاظ الإنكليزية لا تصل إلى نصف مليون في الطبعة الثالثة لا كبر معجم بها (٤٢) ، ومعظمها مصطلحات علمية مقتبسة من الإغريقية أو اللاتينية .

إن مظاهر الثروة في المفردات تتجلى أيضاً في الترادف وتسمية الشيء الواحد أو التعبير عنه بألفاظٍ مختلفة وكلمات متعددة ، كما أننا نجد فيها للمعاني

الشديدة التقارب كلمات خاصة بكل منها ، مهما كانت درجة التفاوت بينها ، وبذلك لا يكون محل اللبس أو الإيهام اللذين هما آفة العلم والأدب.

أما كثرة الأسماء للمسميات فتتمثل فيما ذكر من أن للسيف آلف أسم ذكرها الفيروزآبادي (٨١٧ هـ) (٤٣) ، كما جمع إبن خالويه (٣٧٠ هـ) للأسد خمسمائة أسم (٤٥) ، كما ذكر الأصمعي (٢١٦ هـ) أنه يحفظ للحجر سبعين أسماً (٤٦) ، وروي عن المعري (٤٤٩ هـ) أنه يحفظ للكلب سبعين أسماً (٤٧) ، وذكر صاحب القاموس للعسل ثمانين أسماً وألف فيه كتاباً سماه بـ ((ترقيق الاسل لتصفيق العسل)) (٤٨)، ومما تعددت أسماؤه الثعبان أو الحية حيث وصلت إلى مائتين ، ولكلٍ من المطرِ والريح والنور والظلام والناقة والجمل والبئر أسماءٌ كثيرة تبلغ عشرين في بعضها وتصل إلى ثلاثمائة في بعضها الأخر ، وكذلك الشأن في الأوصاف فلكل من الطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والجبان في العربية عشرات من الألفاظ (٤٩) .

أما الدقة في وضع الألفاظ وتنوعها بتنوع المعاني وتفاوتها والتعبير عن أدق الحركات وأعمق المعاني وأخفض المشاعر والأحاسيس بألفاظٍ خاصة فذلك معلمٌ بارز من معالم العربية وله أمثلة وشواهد كثيرة ، ففي مجال وصف الإنسان بالفصاحة يقولون : فلان ذَرب اللسان إذا كان حاد اللسان قادراً على الكلام ، فإذا كان جيد اللسان فهو لَسِن ، فإذا كان يضع لسانه حيث أراد فهو ذليق ، فإذا كان فصيحاً بيّن اللهجة فهو حذاقي ، جمع جمع البلاغة وحدّة اللسان فهو مشلاق ، فإذا كان لا تعترض لسانه لكنة ولا يتحيف بيانه عجمة فهو مصقع (٥٠) ، وللحب مراتب مختلفة أيضاً وتسميات متعددة بتعدد تلك المراتب ((فأول مراتب الحب : الهوى ، ثم العلاقة ، ثم الكلف ، ثم العشق ، ثم الشعف ، ثم الشغف ، ثم الجوى ثم التّيم ثم التبل ، ثم التدليه ، ثم الهيوم)) (٥١) .

وهكذا تتضح لنا العربية من كل ما تقدم غناها في أصواتها وحروفها ومفرداتها وسعتها في التعبير ، ودقة في الأداء ، وقدرة على مسايرة التقدم البشري في مختلف العصور ، وقد أدرك علماء العربية هذه المزيه وبينوا أهميتها ولكنهم اختلفوا في تفسيرها ، فبعضهم يرى أن الأسماء الكثيرة للمسمى الواحد هي ألفاظ مترادفة تؤدي معنى واحداً ، ولا داعي إلى التماس الفروق بينها ، وبعضه يرى أنه لا يجوز وضع اسمين أو أكثر لمسمى واحد في لغة واحدة ، ولعل مرجع الخلاف بينهم يعود إلى نظرتهم إلى العربية ولهجاتها فالقائلون بالترادف يعدون العربية بمختلف لهجاتها بيئة لغوية واحدة بينما يراها غيرهم بيئات لغوية بينها بعض الأختلاف فما وجد من الفاظ لا يتضح الفرق بينها كالقمح والبر ، والريب والشك ، فأنما يعود إلى اختلاف البيئات اللغوية (٥٢) ، وفي مقدمة المنكرين للترادف أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (   ) ، وتبعة أحمد بن فارس (   ) (٥٣) ، وإلى هذا الرأي ذهب أبو علي الفارسي (٣٧٧ هـ) ، وتترسخ الفكرة أكثر عند أبي هلال العسكري في كتابه الفروق في اللغة موضحاً الفروق الدقيقة نافياً الاشتراك والترادف بحجة أن في الاشتراك إيهاماً وغموضاً وفي الترادف تكثيراً بلا فائدة (٥٤) .

فالمنكرون للترادف إما أن يكونوا من الاشتقاقيين اللذين يولعون برد جميع الكلمات إلى جذور مختلفة كابن فارس ، أو ممن غلبة عليهم الروح الأدبية كأبي هلال العسكري .

ولا شك في أن الكلمات المترادفة تسهل على الإنسان التعبير عما في نفسه فيختار لكل موقفٍ ما يناسبه ، ولكل فكرة ما يلائمها ، فهناك ألفاظ لها جزالة وفخامة ، وهناك ألفاظ تسيل رقة وعذوبة ، كما أن هناك ألفاظ تقطر أسى وحزناً ، وألفاظاً تضوع بشراً وسروراً ، وفي الترادفِ ما يسهل ذلك ويعين عليه (٥٥) .

وبغض النظر عن صلاحية ذلك أو عدم صلاحيته فأنه يدل على سعة العربية ومرونتها في التعبير.

الهوامـــــش

١. ينظر الكتاب : ٤٣١/٤ .
٢. ينظر المقتضب : ١٩٢/١ .
٣. ينظر سر الفصاحة : ٤٧ .
٤. ينظر اللغة الشاعرة : ٩ .
٥. ينظر الكتاب : ٤٣٣/٤ .
٦. ينظر اللغة الشاعرة : ١١ .
٧. ينظر علم اللغة : ١٤٠ – ١٤١ .
٨. ينظر المصدر نفسه : ١٤١ – ١٤٢ .
٩. مولد اللغة : ٥٣ .
١٠. ينظر اللغة بين القومية والعالمية : ١٩١ – ٢٠١ .
١١. ينظر النشر في القراءات العشر : ٢٢٠/١ .
١٢. ينظر نسيم الرياض بشرح شفاء القاضي عياض : ٢٧/١ ، وبهامشه شرح الملا عل القاري .
١٣. كتابة الزينة في الكلمات الأسلامية والعربية : ٤٦/١ .
١٤. سر الفصاحة : ٧٤ .
١٥. اشتات مجتمعات : ٢٦ .
١٦. ينظر فقه اللغة وخصائص العربية : ٢٥١ .
١٧. دراسات في فقه اللغة : ٢٨٥ .
١٨. ينظر المعجم الانكليزي بين الماضي والحاضر : ١٨٤ .
١٩. فقه اللغة وخصائص العربية : ٢٥٣ .
٢٠. ينظر المصدر نفسه : ٩٩ – ١٠٠.
٢١. ينظر الخصائص : ١٠١/٢ .
٢٢. ينظر المصدر نفسه : ١٠٢/٢ .
٢٣. ينظر المصدر نفسه : ١٦١ .
٢٤. ينظر اشتات مجتمعات : ٤٣- ٤٧.
٢٥. ينظر المصدر نفسه : ٤٨ – ٤٩ .
٢٦. ينظر الخصائص : ٥٧-٥٤/١.
٢٧. ينظر المصدر نفسه ٥٧-٥٤/١.
٢٨. المزهر : ٢٧٠/١ – ٢٧٣ .
٢٩. ينظر المصدر نفسه : ٣٦٤/١ .
٣٠. ينظر فقه اللغة وخصائص العربية : ٢٦٥ .
٣١. ينظر في اصول النحو : ١٤٣ .
٣٢. ينظر الاشتقاق والتعريب : ٩ .
٣٣. اللغة الشاعرة : ١٢ .
٣٤. ينظر فقه اللغة وخصائص العربية : ٢٧١ .
٣٥. ينظر اللغة الشاعرة : ١٣ .
٣٦. المزهر : ٤/٢ .

٣٧. فقه اللغة : ١٦٢ .
٣٨. ينظر مجلة العربي : ١٠٢ .
٣٩. ينظر في فقه اللغة : ٢٩٣ .
٤٠. ينظر الزهر : ١/٧٤ – ٧٥ .
٤١. ينظر المصدر نفسه ١/٧٤ – ٧٥.
٤٢. ينظر المعجم الانكليزي بين الماضي والحاضر : ١٨٤ .
٤٣. القاموس المحيط : مادة سيف .
٤٤. ينظر الصاحبي : ٤٤.
٤٥. ينظر حياة الحيوان : ١/٢ .
٤٦. ينظر المزهر : ١/٣٢٥ .
٤٧. ينظر نزهة الاحباء : ٣٥٤.
٤٨. ينظر المزهر : ١/٤٠٧ .
٤٩. ينظر فقه اللغة : ١٦٣ .
٥٠. ينظر فقه اللغة وسر العربية : ١٠٥ – ١٠٦ وفيها وصف للانسان الذي لا يستطيع الخطابة .
٥١. ينظر المصدر نفسه : ١٧١ – ١٧٢ .
٥٢. ينظر في اللهجات العربية : ١٧٨ – ١٧٩ .
٥٣. ينظر الصاحبي : ٩٦ .
٥٤. ينظر الفروق في اللغة ١٣.
٥٥. ينظر المزهر : ١/٤٠٦ .